خلود الحياة[1]

في فلسفة اقبال

— ٢ —

في أحوال عديدة وبأساليب مختلفة يبيّن شاعرنا أن الحياة تختفي صعيفة لتظهر قوية فلا خوف من ذهاب شيء لأنه سيظهر بصورة أجمل وأحسن كما مرّ في الصورة السابقة. وفي هذه القطعة يتحدّث لنا عن تزلزل الحياة واضطرابها الدائم ليزيدنا يقيناً بها.

يحطم الحياة يضطرب الموج ... ولا يستقر في أي حال
تبرهان الحياة في الكون باد ... كل شيء به رهين انتقال
كل ذرّات هذه الأرض دوماً ... في احتدام وثورة واشتعال
لا يغرنك في الجبال سكون ... قد يجيء الكون بالزلزال
ليس ذاك الثبات في الفلك دائر ... إلاّ من خدعة الأنظار
لا تني في المسير قافلة الكون ... ولا تنتهي من الأسفار
عالم دائم التجدد سوار الخطى ... ليس في الطريق يوان
لا يمل التغيير إلاّ خمول ... ليس يدري ما لذّة الطيران
الحياة الجهاد والجد والوثبة ... والعزم ماضياً والبكور
يقطف الزهر في الفروع ولكن ... فوق تلك الفروع تنمو زهور

اقبال يعرف هذه الحقيقة، ويخلق لها من الطبيعة أجمل الصور وأحدث التشبيهات، ليزيل اليأس المظلم بنور الأمل المشرق. وفي هذه الأبيات دقة هذه المعاني متجلية تريك

(١) مقتطفات من الكتاب الذي سيظهر قريباً بعنوان «فلسفة اقبال والثقافة الاسلامية في الباكستان والهند» ترجمة الاستاذ محمد حسن الاعظمي عميد كلية اللغة العربية في [illegible] والكاتب احد المؤتمر الاسلامي الدائم والشيخ الصاوي شلان ديوم معهد اللغات الشرقية بجامعة فؤاد

الحياة ماثلة في تغيرها من جيل الى أجل ومن حسن الى أحسن . فهو يخاطب النجم الذي يضع في ظلام حالك مضطرباً في الفضاء الزرقاء قائلاً : لعلك تخشى فناء حياتك باشراق الصباح فتلك تقضي ليلك في فزع . ويقول المسافر في رحلة الدنيا أن موت البراعم حياة للزهور :

فناء ملايين النجوم مبشر بأنوار شمس السموات تولد
ونوم الردى سكر سيعقب نشوة بخمر حياة في الخلود تجدد
وتوديع أيام البراعم مؤذن بخلق الزهور الباسمات جمالا
ومصنع هذا الكون بالخلق دائر فإني أرى فيه الكون عمالا
وليس سوى التغيير في الكون ثابت يغير حالاً ثم ينشىء حالا

في هدوء المساء يقف إقبال في عالم سكينته وأحلامه على شاطىء بحر الراوي ناظراً الى منار قصر الملك الجغتائي الذي يسمعه قصة انقلاب الزمن، ثم يتأمل الى سفينته تجري مسرعة في البحر، ثم تغيب عن الانظار فيترجم عن فكره المنير بهذا البيت : —

سفينة عيش المرء تبدو وتختفي ولكنها في الموج لا تتحطم

وقد تحدث اقبال في صور مختلفة عن خلود الحياة الإنسانية. والآن : تأمل الى النهر الذي ينحدر من القمم المرتفعة في ملاءته البيضاء، هابطاً كسلاسل الفضة، مرسلاً من خريره نغماً شجيًّا يتعلم منه البلبل ترجيع ألحانه، حتى اذا هبط الى السفوح والوديان، تفرقت قطراته كما يتفرق الآلاف، وكانت لا ترى الآن من ذلك الماء السلسال شيئاً فإذا سرت قليلاً بعد ذلك بين الرمال رأيت النهر متجلياً في حلاه الفضية يسقي من حوله الغابات والأعشاب .

كذلك نهر الحياة يهبط من منابعه ثم يغيب حيناً ليظهر منسقاً في مجرى الخلود . ويقدم لنا هذه الصورة الأنيقة : —

من رؤوس الجبال يحدر النهر طروب الامواج عذب الاغاني
ينقل الطير عنه بين الروابي ما يبث الغصون من أشجان
كحدود الحور الحسان تراه في صفاء البلور حلو النظير
ثم تمضي تلك المياه ضياعا في تلال منثورة وصخور
فطيرات من النهر طرتها في ثنايا الرمال ايدي الفراق
ثم تجري مع الينابيع في الارض فتحظى بعد النوى والتلاق
فإذ النهر بعد ذلك في مجراه يحيي الزهور والأعشابا

فضة تنبت الزمرد في الأرض وتسقي النخيل والأعنابا
وحياة الانسان نهر سماوي توالت بسيره الأقدار
كل ماض ماؤه عاد فياضاً فما ينقضي له تيار
شعلة النفس لا تسير رماداً ضوؤها خالد على الأزمان
كل شيء يمضي وكل حياة تنقضي غير جوهر الانسان

ويطالعنا اقبال ببرهان عميق يحملنا على الاذعان والتصديق ، ويزيد الايمان في أنفسنا جلاء ووضوحاً . وذلك انه لما كان الحرص على الحياة وتنازع البقاء مما هو مركز في جميع طباع الأحياء ، مستقر في غرائز الكائنات ، وكأن القدرة بذلك نقشت سر الخلود في حب الحياة . وعموم الموت وشموله يدلنا على انه لا يؤثر في حقيقة الوجود ، وانه لا يزيد من كونه أمراً عرضياً كالنوم الذي لا يؤثر في حيوية النائم والى هذا المعنى يشير بقوله :

سر الخلود يجري مع الدم في العروق وخالط الأرواح والاحياء
لم يحيا الرحمن في الدنيا سدى وهو الحكيم مشيئة وقضاء
لما رأيت الموت أشمل عامل علمت بأنه لن يستحيل فناء
الموت مثل النوم يبدأ سكرة ويعود صحواً دائماً وبقاء

لا توجد في علوم الطبيعة قيمة خاصة للحياة الانسانية وليس للمعاني الانسانية العليا شأن خاص في هذه الكائنات ولكن الدين يعلمنا أن الانسانية أشرف المخلوقات بل ان هذه الكائنات خلقت لأجله .

واذا كان هذا صحيحاً فتأملوا الى تلك النجوم التي تنير منذ ملايين السنين التي تكبر العقول دون حساب أعمارها فلنوازنها بالانسان الذي هو أبعد نظراً ، وأعلى قيمة وشرفاً من النجوم ، ومما وراء الأفلاك .

وليست السماء في سعة فطرته الا نقطة ومقصد حياته أعلى من مقامات الملائكة ، ومن أقماسه يتجلى النور في محافل القدرة . وقد حمل الأمانة التي عرضت على السماوات والأرض والجبال فأبين أن يحملنها وأشفقن منها . فهل تحيا هذه النجوم كل هذا العمر الطويل والانسان الذي يساميها بقلامة ظفره يفنى في لحظة ؟ وهل هو أقل من هذه الذرات اللامعة حتى تبقى هي في لمعانها ثم يمحى ضياؤه في لمحة ...

يا أيها المسلم إن الأرض والسماء لك ضياؤك القدسي أعلى من شرارات الفلك

ما جئت في الدنيا لتفنى وهي بالخلد تدوم
هل تصبح الشمس أقل قيمة من النجوم

تأملوا الى حقيقة البذور عندما غطيت بتراب الأرض وهي لم تضمحل تحت الثرى ولم ينضب معين حيويتها ، وهي دفينة في ترابها . بل كما كانت في تفاعلها مضطربة للنشوة والنماء وشعلة الحياة المستورة في وجودها لم تنطفىء من تلك الظلمات ، حتى نمت وترعرعت وتفتحت أكمامها بالزهور الباسمات من أجل الألوان وأعطر النسيم حتى أوحت الى نفس الشاعر هذه الأبيات .

لقد دفنوا في التراب البذور فلم تفن في لحدها الهامد
ولم تنطفىء نارها في الحياة على طول مرقدها البارد
لقد نسجت لحياة البقاء وصاغت من الزهر أبهى حلاه
فما غضها زاهراً واستعادت من الموت تجديد ذوق الحياة

الشاعر الوحيد يعبر عن المعنى الواحد بأساليب مختلفة، ولا ضير عليه من تكرار المعنى الذي يفتن له في تجديد الحلة وتجميل الأسلوب، وهذا هو شأن اقبال . فقد عبر لنا عن مساء الموت وصبح الخلود في الصور السابقة ، ثم هو يعيد هذا المعنى في ثوب آخر حين يعرض علينا الصباح مقبلاً في حلته الباهرة يوقظ العالم لاستقبال الحياة بنشوة وأمل .

وما الموت بهذا المشهد الطبيعي الجميل إلا صورة والبك هذه الأبيات :

حينما ينشر الصباح نديًّا ناصعاً في مواكب الاشراق
يضمن النور في المشارق أدراً ان الدياجي عن حلة الآفاق
ويطير السكرى وينتبه العشب وتصحو عزائم الكائنات
ويهب الأحياء في البر والبحر ليستقبلوا عروس الحياة
وإذا كان للخلائق ناموس يرينا الصباح بعد المساء
فكذا تذهب الحياة ولكن بعد ليل الحمام صبح البقاء

ليست حلقات الحياة الإنسانية ضيقة الى حدّ أن ترتبط بالهيكل الترابي وجوداً وعدماً . ثم أن الدنيا ليست دار المنازل وليست آخرها . هذه القبة الزرقاء ليست نهاية وجودنا ، وليست الأجسام إلا وكراً لهذه الأرواح، فاذا ذهب الوكر يخلق وكر آخر . هذا هو عمل الفطرة

التي لا تتقيد بسلسلتي الليل والنهار . وقد حدثنا اقبال عن هذا العمل أحسن الحديث وبين أن المسلم عظيم الشأن في الخلود ، وأنه أقوى وأعظم من هذا الكون المحدود : —

فوق السماء أيها المرتاد آخر وفوق هذا المجد في دنياك مجد ينتظر
بعد الحياة أيها المسلم تبدأ الحياة صانع دنياك وأخراك معاً هو الاله
ان البرايا دول بها انقضاء حافل لم تنقطع من الطريق هذه القوافل
وكم وراء عالم الانوثان من عوالم فلا تضع حدثاً لما في النفس من عزائم
كل الذي تعرفه ليس نهاية الوجود فكم تريدت سنن وراء هذه الحدود
ان هدم الدش في البستان تنشأ التركور طرا الخلود مؤمناً ليس الجمود للطيور
فبعد هذا الظل يا بلبل ماء وهواء وجنة أخرى يطيب في رياضها الغناء
الليل والنهار للآمال لا يتسعان فطالب مقاماً للعلا فوق الزمان والمكان

تذهب الأفراد ويبقى النسل والأمة — ويجب على المسلمين أن يذكروا أن بقاءهم في هذه الدنيا ضروري لتكميل حكمة الله . والرسالة التي لم تتم في أمتي الخليل والكليم يتمها أذان المسلم ، ان النسيم العليل يمر على البراعم ، ولكن الزهور لا تتكمل عودها حتى تدمي يد البستاني أغصانها وأشجارها بالتشذيب . والصاعقة تسقط على وكر القمري فيموت والبلبل يقع فريسة في شرك الصياد ولكن رونق الربيع باق . وآلاف الطيور تقبل وتنشد ألحانها وتطير والبستان لا يزال قائماً : —

اذا سقطت زهرة في الربيع فكم في بساتينه من زهور
وبارب لؤلؤة حطموها لترفع في التاج أو في النحور
يغيب الصباح من المشرقين ويمضي المساء من المغربين
وما زال يقبل هذا وذاك جديد يدين في حلة النيرين
مئات السنين مضت في الحياة وما استنفدت بحر أزمانها
وكم أفرغ الشاربون الكؤوس وما زالت الخمر في حانها
وكم زال أمس فوافى غد وكم أشرق النور بعد الظلم
يزول من الأرض أفرادها وتبقى الشعوب بها والأمم

المسلم آية من آيات الله ، وآيات الله لا تزول . المسلم باق ليرفع العلم ويتسنم خلافة الارض . وأعداء الاسلام يحاولون أن يسقط هذا العلم وان يذهب المسلمون . ولكن هؤلاء الاعداء أنفسهم كثيراً ما يشاهدون نور الاسلام فيصحون في ظليمة أنفاره وحمائه ، فينقلب عدوانهم حماية ورعاية . اذا سقطت بعض موازين المسلمين فالمسلم سيبقى والاسلام لن يفنى : —

ذلك المسلم من أندلس سيعيد العزم في الشمس مكانه
من سقاه العشق يوماً خمره لم يعد في السكر محتاجاً لحانه
والليالي علمتنا عبراً في الذي مرَّ بلا غزو التتار
كفروا ثم اجتلوا نور الهدى فاهتدوا لما رأوا ذاك المنار
عرفوا الاسلام فانقادوا له وغدا أعداؤه ركن حماه

المنظر الذي يروع الإنسان هو حركة الموت التي تكمن بعدها الاعضاء وتبرد الحواس. فحينما يراك اقبال مرتعداً مذعوراً لهذا المشهد الرهيب ، يضع على قلبك برد العزاء ويبين لك أن ملك الموت لا يميت الارواح ، وان أفق عالم الاشباح : —

يعصف الموت بالجسوم ولكن ليس يفني من قوة النفس شيئا
تصعد الروح للخلود ويبقى عالم الغيب والشهادة حيّا
لا تخف من مخافة الموت جهلاً فبغير الانفاس روحك تحيا

ليس الإنسان من هذا العالم في شيء فجميع ما حوله من المظاهر المادية تضمحل وتذهب مع الهشيم ، ويبقى بعد ذلك جوهر الانسان ساطعاً . يحدثنا عنه اقبال : —

هوى سرير «كيقباد» [1] وانطوى اكليل «جم»
وأصبح الكل رماداً مثل هيكل النسم
أما أنا فلست أدري أين يعلو نظري
أن تراب غير أن الشمس دون جوهري

(١) كيقباد وجم من ملوك الفرس القدماء